



+ آباؤنا القديسون

القديس يوحنا الذهبي الفم رئيس أساقفة القسطنطينية

ولد القديس يوحنا الذهبي الفم في مدينة انطاكية العظمى في تركيا بين عامي ٣٤٤ و٣٤٧. وكان والده سكوندوس قائداً للجيش الشرقي في الأمبراطورية وكان وثنيًا، أما أمه انثوسة فكانت امرأة مسيحية وقد ترمّلت وهي في سنّ العشرين فكرّست حياتها لتربية ولدها وإدارة الأملاك الموروثة عن زوجها.

درس يوحنا في أعظم مدارس انطاكية التي اشتهرت بتعليمها ومعلميها ومنهم ليبانوس الفيلسوف الأفلاطوني الجديد الذي ترك أثراً لا يُمحى في نفس الذهبي الفم.

إقبل يوحنا المعمودية في سنّ متقدمة على يد أسقف انطاكية القديس ملاتيوس الذي رأى فيه نجماً ساطعاً في الكنيسة. كانت رغبة قديسنا أن يترهب بعدما تأثر بالراهب ديودوروس إلا أن أمه والقديس ملاتيوس حالاً دون تحقيق رغبته في التسك فحوّل بيته إلى دير وعاش فيه كما لو كان في القفر.

بعد وفاة والدته هام يوحنا في الصحراء ليقضي حياته في العبادة والتأمل والعمل اليدوي فبقي أربع سنوات تحت قيادة راهب اسمه هزيجيوس ثم توحد سنتين في المغاور حيث تستى له أن يخوض حرباً ضروساً ضد أهوائه لتنقية جسده ولاقتناء نعمة الروح القدس. ولفرط نسكه وتأثير الرطوبة والبرد في المغارة مرض يوحنا ممّا اضطره للعودة إلى المدينة على أمل الرجوع إلى القفر. ولكن العناية الإلهية أرادت له دعوة أخرى، إذ يجب أن يوضع على المنارة لينير الكنيسة بتعليمه وبحياته، فسيم شماساً ثم كاهناً وظلّ يعظ في انطاكية ١٢ سنة مصلحاً ومؤدباً ومعزياً ومشجعاً نفوس المؤمنين، مركزاً في عظاته على كيفية السلوك بحسب الإنجيل في الحياة اليومية وترجمة الإنجيل إلى واقع شخصي واجتماعي.

تأثر يوحنا بالرسول بولس وكان همه الوحيد أن يوصل النفوس إلى الله وأن يغرس فيها الإيمان المستقيم. فما نفع الفضيلة والتّقشّف إذا لم يضعهما الإنسان في خدمة الناس؟ "فما يميّز محبّ المسيح، كما قال يوحنا، هو اهتمامه بخلاص الآخرين. خير للإنسان أن يكون أقلّ فضيلة ويهدي الآخرين من أن يعيش على قمم الجبال ويرى اخوته البشر يهلكون".

لمع قديسنا في انطاكية ووصلت شهرته إلى القسطنطينية فانتشر عبر فضائله حتّى عطرّ النفوس وأنعش القلوب المنكسرة. بعد وفاة بطريرك القسطنطينية نكتاريوس (+ ١١٠ ت ٣٩٧) انتخب يوحنا بطريركاً وتمّت



+ آباؤنا القديسون

سيامته في ٢٦ شباط سنة ٣٩٨ بأبهة وعظمة. فور تسلّمه عصا الرّعاية بدأ عمله الاصلاحيّ الجادّ عائشاً بخلاف ما تقتضيه حياة التّرف والبذخ فأفرغ الدّار البطريركيّة من الأثاث الثّمين والأواني الفضيّة وحوّل الأموال إلى بناء المستشفيات ومضافات الغرباء ومساعدة الفقراء.

قَبَل الملك أركاديوس قرارات اجمع المنعقد في قصر السّنديانة (في إحدى ضواحي خلقيدونية في تركيا) برئاسة بطريك الإسكندريّة ثيوفيلوس عدوّ يوحنا اللّود، فأمر بنفي يوحنا. لكنّ يوحنا عاد إلى كرسيه في اليوم التّالي لنفيه تحت ضغط المؤمنين وطلب الأميرة افدوكسيا التي شعرت أنّ الله غاضب منها بسبب القديس. وبعد شهرين عادت المشاكل من جديد بين البطريرك والأميرة افدوكسيا فصدر مرسوم ملكيّ يقضي بتجريد الذّهبيّ الفم من أسفقيّته ونفيه إلى كوكوزا (قرية منعزلة بين كيليكيا وأرمينيا) ثلاث سنوات وثلاث أشهر. هناك قاسى الإرهاق والمرض، إلّا أنّه بقدر ما كان عظيماً في إدارة رعيّته، ظهر كبيراً أيضاً في احتمال الشّدائد التي أرسلها الله إليه لينقّي بنار الألم ذلك القلب الذّهبيّ لماعاً وضاءً للأخدار السّماويّة.

نُقِل يوحنا إلى منطقة كومان في بلاد البنطس حيث هرم ونخل. في ١٤ أيلول من العام ٤٠٧ شعر قدّسنا أنّ ساعته قد أتت فطلب من الجنود أن يزور كنيسة القديس بازيليكوس فارتدى قميصاً أبيض وتناول جسد الرّبّ ودمه واستلقى على بلاط الكنيسة وقال: "أحمد لله على كلّ شيء، آمين" وأسلم الرّوح وله من العمر ستون سنة.

لُقّب يوحنا بالذّهبيّ الفم منذ القرن السّدس لأنّه فاق كلّ الآباء بضخامة تراثه الأدبيّ ولسانه الذي لفظ كلمات من العسل. إكرام المؤمنين له كقديس بدأ في حياته. تعيّد له الكنيسة المقدّسة في ١٣ تشرين الثّاني وليس في ١٤ يوم رقادته بسبب وقوع عيد رفع الصّليب في ذلك اليوم. نُقلت رفاتة بعد ٣١ سنة من رقادته إلى القسطنطينيّة في احتفال مهيب لم يسبق له مثيل. ثمّ حملها الصّليبيّون إلى روما عندما اجتاحتها القسطنطينيّة. تُنسب إليه خدمة القدّاس الإلهيّ، والجدير ذكره أنّ يوحنا عُني كثيراً بالطّقوس الكنسيّة والترانيم.